

مركز تكامل للدراسات والابحاث

دراسات محكمة

السلوك التضامني خلال أزمة كورونا
التاريخ مدخلا للفهم والتفسير

سعيد الحاجي

أستاذ التاريخ المعاصر

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس

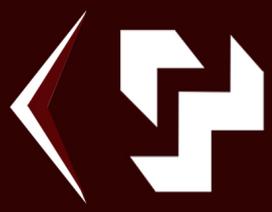
All rights
reserved



جميع الحقوق
محفوظة

مركز تكامل للدراسات و الأبحاث
TAKAMUL centre for Interdisciplinary Research and Studies

السلوك التضامني خلال أزمة كورونا التاريخ مدخلا للفهم والتفسير



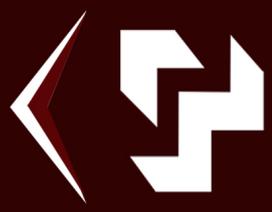
مقدمة:

استطاعت أزمة فيروس كورونا أن تحتكر لنفسها لقب أول أزمة شملت جميع دول العالم بدون استثناء في القرن الواحد والعشرين، هذه الأزمة التي أفرزت وضعا غير مسبوق أدى إلى إقرار إجراءات وقائية على رأسها الحجر الصحي الذي منع بموجبه التنقل بين الدول وداخلها، تفاديا لانتقال العدوى التي أثبت الأطباء أنها تنتقل بسرعة في حالة فيروس كورونا أكثر من أي فيروس آخر. الشيء الذي أدخل العالم فيما يشبه السبات الكوني وحالة الجمود والترقب أمام كائن مجهري لا يعرف الإنسان كيف يحاربه.

مع مرور الوقت، أفرز الخوف من الفيروس تخوفات أخرى على مستويات عدة، فتوقف الاقتصاد كان من بين نتائجه تأثر ملايين الناس سلبا بوضعية الجمود الجديدة، وهذا ما حول أزمة كورونا إلى محرك لعملية تفكير ضخمة وسريعة، نتج عنها فقدان شرائح واسعة لمداخيلها وتحول المنتمين إليها من إجراء أو ممارسين لمهن حرة تدر مدخولا محترما، إلى شرائح تنتظر ما ستجود به مخططات الدولة عليها من دعم ومساعدات تضمن لها البقاء في مستوى الحد الأدنى من العيش. وقد كانت وضعية اقتصاديات الدول عاملا حاسما في التخفيف من آثار الأزمة على مواطنيها، إذ أن الدول ذات الاقتصاديات القوية عبأت ميزانيات هائلة لتقديم المساعدات المالية للأسر المتضررة، قصد مساعدتها على ضمان الحد الأدنى من حاجياتها، والحفاظ على مستوى أدنى من الاستهلاك يجنب الدورة الاقتصادية الشلل التام، مما قد يحول الأزمة من اقتصادية إلى اجتماعية تؤدي في النهاية إلى أزمات سياسية مفتوحة على المجهول.

أما في الدول ذات الاقتصاديات المحدودة، ومن بينها المغرب، فقد حاولت الدولة بسرعة التدخل للتخفيف من حدة التداعيات السلبية للأزمة الاقتصادية، لكن ذلك التدخل كان محدودا ومرتبطا بفترة معينة فرضت الدولة فيها على الناس عدم العمل والالتزام بالحجر الصحي تفاديا لانتشار العدوى. وبقدر ما كان تدخل الدولة في المغرب غير كاف عموما لجميع الفئات المتضررة، على غرار الدول ذات الاقتصاديات المماثلة، والتي ترتفع فيها معدلات الفقر والبطالة والتهميش، فإن ما يساهم في التخفيف بشكل أكبر من تداعيات الأزمة، خصوصيات

السلوك التضامني خلال أزمة كورونا التاريخ مدخلا للفهم والتفسير



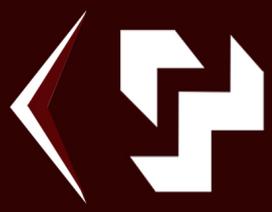
المجتمعات ومدى تجذر ثقافة التضامن داخلها، وهو تضامن غير مؤسساتي يخضع لمنطق مجتمعي صرف مستند إما على أعراف محلية أو معتقدات دينية أو تمثل الناس في المجتمع للأواصر العائلية.

لقد كان دور هذه الآليات بارزا في المجتمع المغربي خلال أزمة كورونا، وبالرغم من تخصيص الدولة لمبالغ بسيطة من الدعم لبعض الفئات، إلا أن هناك آليات تضامنية قوية تحركت داخل المجتمع، وكان دورها يوازي دور الدولة في التخفيف من وقع الأزمة على الشرائح الهشة، ولعل هذا يفتح مجالا واسعا لرصد جزء من بنية سلوكية ممتدة في الزمن لازالت ماثلة إلى اليوم في المجتمع المغربي، على الرغم من تطور نمط الاستهلاك وتقلص حجم الأسرة وتراجع الروابط الاجتماعية مقارنة مع ما كانت عليه في مراحل زمنية سابقة.

إن نمط الاستهلاك الجديد وتزايد النزعة الفردانية التي تجنح نحو صياغة نموذج استهلاكي يقلص الاستفادة منه ويحصره داخل محيط الفرد في الأسرة الصغيرة، ويجعل الاستفادة تضعف تدريجيا كلما تجاوزنا هذه الأسرة، هذا النمط قد يعرف نوعا من الانقلاب خلال الأزمات المماثلة لأزمة كورونا في المجتمعات ذات الخصوصية المماثلة للمجتمع المغربي. وإذا كان تاريخ المغرب حافلا بالأزمات والمجاعات والأوبئة التي تسببت في هزات عنيفة للمجتمع المغربي، فإن أهم ما يسجل في مختلف هذه الأزمات، حضور السلوك التضامني وثقافة التأزر بين مختلف فئات المجتمع.

إن بروز السلوك التضامني بهذه القوة في المجتمع المغربي على الرغم من التطور الذي عرفه، يجعل المؤرخ مرة أخرى في موقع التفسير استنادا إلى ما يتوفر عليه من أدوات منهجية، ومن إلمام بالسياقات التي تجعله يرصد عناصر الاستمرارية في بنية اجتماعية متحولة بشكل سريع في عالم اليوم. وقد يكون المؤرخ من أكثر المتدخلين قوة في الأزمة الحالية على هذا المستوى. إذ أن المتخصص في الاقتصاد قد يعتبر أشكال التأزر الاجتماعي بمثابة مؤشرات ساهمت في الحفاظ على استمرار الفئات الهشة في تحريك النسق الاستهلاكي، كما أن المتخصص في علم النفس قد يفسرها بالخوف الذي يدفع الفرد إلى إنقاذ المقربين منه، والفقيه قد يعتبرها امتثالا لتعاليم الدين التي تحث على التضامن وغيرها...، لكن لا أحد من هؤلاء المتخصصين في حقول معرفية مختلفة، قادر على وضع هذه

السلوك التضامني خلال أزمة كورونا التاريخ مدخلا للفهم والتفسير



الأشكال في سياقها التاريخي وإبراز مكانتها ضمن عناصر الاستمرارية في بنية المجتمع، ومقارنتها مع الأشكال الأخرى الموجودة داخل المجتمع في الأوقات العادية.

ومن جهة أخرى، فإن المؤرخ هو الأكثر قدرة على قياس تأثير أشكال التأزر على المجتمع، وتحديد مستوياتها انطلاقا من المقارنة مع الأشكال التي كانت تتم خلال مراحل زمنية سابقة. وعلى هذا الأساس، يمكن الوقوف على ثلاث مستويات أساسية في النسق التضامني بالمغرب.

- المستوى الأول: السلوك التضامني الفردي

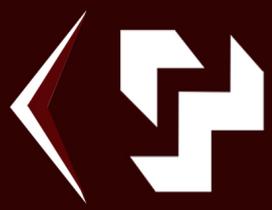
أثرت الأزمات والكوارث الطبيعية كثيرا في سلوك الإنسان المغربي عبر التاريخ، مما جعله يطور أساليب مواجهتها حسب ما توفر لديه من إمكانيات، ورغم أن الجيل الذي يعيش أزمة كورونا الحالية، أبعد ما يكون عن آخر الأزمات التي عرفها المغرب في الثلاثينات والأربعينات من القرن 20، إلا أن سلوكه التضامني اتسم بنفس المميزات التي طبعت السلوك التضامني الفردي في المغرب خلال فترات مختلفة. ولم تفلح التطورات المتسارعة في النيل من بعض الآليات التوقعية للأزمات، مثل آلية الادخار.¹ خصوصا في ظل النظام الاقتصادي المغربي الذي يتميز بعدم الاستقرار وقلة الفرص واتساع شريحة الفقراء، مما يولد لدى باقي الفئات خوفا فطريا من أزمة توقع حدوثها في أية لحظة رغم أنها قد لا تعرف ماهيتها. وإذا كان التضامن بين الأفراد ليس بالسلوك الغريب عن المجتمع المغربي، فإن أزمة كورونا سجلت العودة القوية والنشاط البارز لمنظومة التأزر الاجتماعي بين أفراد المجتمع بغض النظر عما تقدمه الدولة. وبالعودة إلى محددات السلوك التضامني الفردي فس نجد المحدد الديني بالدرجة الأولى،² ثم الروابط العائلية والقبلية، ثم الروابط الإنسانية التي تجعل سلوك التضامن يتجاوز الدين أو

¹ - تحدث عن هذه الآلية الهادي بياض، وأكد على تجذرها في المجتمع المغربي من خلال تقنيات تخزين المحاصيل الزراعية في السنوات الفلاحية الجيدة، انظر الهادي بياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك الإنسان في المغرب والأندلس (ق 6 - 8 هـ / ق

12 - 14 م)، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2008، ص 195

² - جاء في سورة البقرة: ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الآية، 280)

السلوك التضامني خلال أزمة كورونا التاريخ مدخلا للفهم والتفسير



الارتباط العائلي.³

إن أية محاولة لفهم السلوك التضامني بين أفراد المجتمع في أزمة كورونا، لا يمكن أن تتم بمعزل عن المعطى التاريخي الذي سيقدم للمتخصص في علم الاجتماع وعلم النفس والاقتصاد...، مساحات إضافية ومداخل أكثر أهمية لفهم هذا السلوك.⁴ لأنه جزء من بنية ممتدة في الزمن امتدادا عميقا، فالدين كان دائما محركات للتضامن بين الأفراد، والأمر هنا لا يقتصر على الإسلام فقط، إذ أن السلوك التضامني في المغرب تاريخيا كان يحركه أيضا الدين اليهودي على مستوى المجموعات اليهودية.⁵ وإذا كان السلوك التضامني بين الأفراد في أوروبا يرتبط غالبا بأوقات الأزمة، فإن هذا السلوك في المجتمع المغربي لم يكن يرتبط بأزمة معينة، بقدر ما كان سلوكا دائما يكرس ربط التضامن الاجتماعي مباشرة بالثواب الإلهي، ويمتد تأثير الدين على السلوك التضامني للفرد، إلى حد إضفاء مسألة الأبدية على ذلك السلوك وجعله متجاوزا لحياة الفرد إلى ما بعد وفاته، ويمثل تخصيص الأملاك للعمل الخيري بموجب "الوقف" أسى تجليات السلوك التضامني لدى الأفراد.⁶ لذلك، تحول التضامن بين الأفراد إلى نسق يشتغل بشكل تلقائي ودائم مع تسجيل حيوية كبيرة في أوقات الأزمات، بشكل حوله إلى عنصر من عناصر استمرارية بنية قديمة ممتدة في المجتمع المغربي إلى اليوم.

على مستوى آخر، فإن الرابط العائلي من بين العوامل المتحكمة في السلوك التضامني خلال أزمة كورونا الحالية، وإذا كان مفهوم الأسرة والعائلة في القرن 16 مثلا يختلف عن نظيره في القرن 21 بفعل تأثيره بتطور نمط

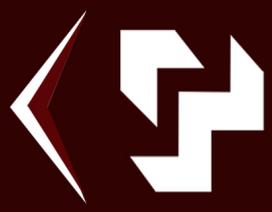
³ - تجسده المساعدات والتبرعات التي يقدمها الأفراد الميسورون لأفراد آخرين لا يعرفونهم، عبر وساطة جمعيات أو أفراد آخرين يتولون توزيع هذه المساعدات على المحتاجين.

⁴ - استند إميل دوركايم على العودة لدراسة المجتمعات البدائية لتتبع مسار التغيير الذي وصلت إليه المجتمعات الحديثة، انظر: زكرياء الإبراهيمي، إميل دوركايم والتأسيس السوسولوجي للحدثة، موقع مؤمنون بلا حدود، 29 شتنبر 2016، ص 06

⁵ - كانت الطوائف اليهودية تتوفر على ما يعرف بصناديق الأعمال الخيرية التي تقدم المساعدات للفقراء في أوقات الأزمة، انظر: حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود، تاريخ، ثقافة، دين. ترجمة أحمد شحلان، الطبعة الأولى، طبع المترجم، الدار البيضاء، 1987، ص 133

⁶ - كان بعض الناس يوصون بتخصيص مداخل جزء من ممتلكاتهم لتوزيع الإعانات على الفقراء بشكل أسبوعي، ومن الأمثلة على ذلك عادة "خبز الخميس" التي كانت معروفة في تطوان، حيث كان يتم بموجبها توزيع كمية من الخبز على الفقراء من طرف المحسنين كل خميس. انظر: محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الطبعة الأولى، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1992. ص 355

السلوك التضامني خلال أزمة كورونا التاريخ مدخلا للفهم والتفسير



العيش، وتقليص مساحة العائلة الكبيرة المتشابكة القريبة جغرافيا والقائمة على المشترك حتى في أدق مظاهر الحياة مثل الأكل والنوم وغير ذلك. فإن مفهوم العائلة في الأزمة الحالية سرعان ما يتوسع ليتخذ شكله التقليدي بسبب الآليات التضامنية التي تمتد لتشمل أفرادا أبعد داخل العائلة الواحدة، فيما وصفه أحمد التوفيق بـ "التضامن القرابي"⁷. وهذا ما يحيلنا على السلوك التضامني الذي يطبع الفرد داخل القبيلة، عبر اعتماده لآليات من قبيل "التوزيع" وغيرها خلال أوقات الأزمة.⁸ ومرة أخرى، فالمدخل التاريخي لآبد منه لتفسير استمرار دينامية النسق التضامني على مستوى الأفراد خلال أزمة كورونا، طالما أن الأمر جزء من بنية مجتمعية ثابتة وليس سلوكا طارئا على المجتمع المغربي، يمكن اجتزاؤه وإخضاعه لزواية تحليل أحادية من طرف علم الاجتماع أو علم النفس على سبيل المثال.

- المستوى الثاني: السلوك التضامني للدولة

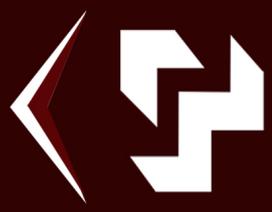
أخذت الدولة المغربية على عاتقها مسؤولية دعم الفئات الأكثر تضررا من جائحة كورونا، خصوصا وأن فئات عديدة اضطرت للتوقف عن العمل، وإذا كانت الدولة المغربية العصرية لها من الآليات ما يمكنها من تحديد الفئات المستهدفة بالدعم على وجه أدق، فإن المقاربة التاريخية تحيلنا على الحضور الدائم للدولة على مستوى دعم الفئات الهشة، ولعل المقارنة بين أشكال الدعم التي كانت تقدمها الدولة الموحدية على سبيل المثال في فترات المجاعات والأوبئة،⁹ وبين أشكال الدعم الحالية، ستكشف لنا عن سلوك مؤسساتي يمتد لقرون في المغرب، وهو

⁷ - أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن 19 (إينولتان 1850 - 1912)، الطبعة الأولى، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 63، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2011، ص 382

⁸ - المريني العياشي، النضال القبلي، الأنظمة الاجتماعية الجبلية والنظام الاقتصادي، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، مؤسسة التغليف والطباعة والنشر والتوزيع الشمال، طنجة، 1988، ص 120

⁹ - بسبب العدد الكبير للفقراء المحتاجين للدعم في الأزمة الغذائية التي عصفت بالدولة الموحدية سنة 1171، عمد الخليفة عبد المومن الموحد إلى "وضع معايير لانتقاء البؤساء، بحيث لم يكن هؤلاء يتوقعون التفاتة رسمية من هذا القبيل". أنظر: الهادي البياض، الكوارث الطبيعية، مرجع سابق، ص 254. كما أمر السلطان الحسن الأول بتوزيع الصدقات على الناس في مجاعة 1878. أنظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء التاسع، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1997، ص 165

السلوك التضامني خلال أزمة كورونا التاريخ مدخلا للفهم والتفسير



سلوك نابع من حرص السلاطين على التقيد بتعاليم الإسلام التي تحث على الإحسان،¹⁰ ومن ضرورة تكريس الدولة لصورتها كحامية وضامنة لاستقرار ومعيشة المواطن خلال الأزمات، ولا يرتبط هذا الدور فقط بتطور مس الأدوار المنوطة بالدولة، أو أن تقديم الدعم خلال الأزمات مرتبط بالدولة العصرية، بل إن ما تقوم به الدولة حاليا هو ما كانت تقوم به دولة الموحدين، ثم دولة المخزن منذ ظهورها إلى حدود مرحلة الحماية، وهو ما وصفه محمد الأمين البزاز بـ "الدور الاجتماعي للمخزن".¹¹

إن التطور الذي عرفته الرأسمالية كنظام اقتصادي، وما ارتبط بها من ضعف حضور البعد الاجتماعي والاهتمام بالفئات الضعيفة في نسقها الإنتاجي والاستهلاكي،¹² لم يمنع من ممارسة الدولة لدورها الاجتماعي، خصوصا وأن حرص الدولة على استقرار المجتمع هو من حرصها على وجودها كجهاز ونسق للحكم، والتاريخ حافل بالأزمات الاجتماعية والانتفاضات التي رافقت بعض المجاعات التي عرفها المغرب، والتي كانت توجه شحنة السخط في نهاية المطاف نحو الدولة، طالما أن الفئات الهشة تعتبرها المسؤول الرئيسي عن أزماتها.¹³ وهذا ما يؤكد على أن المدخل التاريخي مهم جدا لفهم سلوك الدولة، خاصة عندما يتسم التعاقد بينها وبين المواطنين بالهشاشة وانعدام الثقة في بعض المحطات، وهذا ما نجده على الخصوص في الدول العصرية التي لا تزال محتفظة ببعض عناصر البنية التقليدية التي تآبى الاشتغال وفق منطق التعاقد المكرس للحقوق والواجبات. والمؤرخ في هذه الحالة، مؤهل لتقديم تفسيرات لسلوك الدولة التضامني انطلاقا من المدخل التاريخي.

المستوى الثالث: السلوك التضامني للمؤسسات الغير الرسمية

¹⁰ - محمد الأمين البزاز، الأوبئة والمجاعات في المغرب، مرجع سابق، ص 370

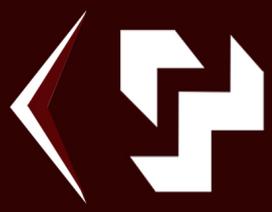
¹¹ - نفس المرجع، ص 361

¹² - فرناند بروديل، ديناميكية الرأسمالية، ترجمة: شفيق محسن، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي، ليبيا، 2008، ص 51

¹³ - قام الفقراء بعد طاعون سنة 1603 بمهاجمة حقول السكر التي يشرف عليها المخزن في سوس، انظر:

- Bernard ROSENBERGER et Hamid TRIKI. - Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles, Hespéris-Tamuda, Vol. XV. Fasc. Unique, 1974, p 64

السلوك التضامني خلال أزمة كورونا التاريخ مدخلا للفهم والتفسير



إذا كان الدور التضامني للدولة والأفراد قد أظهر فعاليته الكبير في التخفيف من آثار الأزمة في المجتمع المغربي، فإن أزمة كورونا أظهرت عنصرا آخر لا يقل فعالية عن دور الدولة والأفراد، والمتمثلة في جمعيات المجتمع المدني التي تعبأت لجمع وتوزيع المساعدات التضامنية، وهذه الآلية تعد بمثابة جسر للدعم يصل بين الدولة وأفراد المجتمع المستهدفين من جهة، ووسيطا بين أفراد لديهم الإمكانيات لتقديم المساعدة والفئات المحتاجة من جهة أخرى. وانطلاقا من كون جمعيات المجتمع المدني أكثر قربا من السكان طالما أنها تتشكل منهم في الأحياء والتجمعات السكنية في المدن والبوادي.

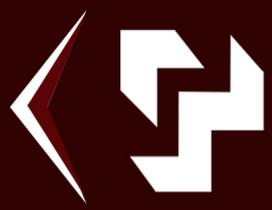
رغم أن مفهوم المجتمع المدني هو مفهوم عصري،¹⁴ لكنه يمثل لنا آلية من آليات تنشيط النسق التضامني خلال الأزمات، ولا بد من التأكيد على أن المجتمع والدولة كلاهما كان محتاجا خلال أوقات الأزمات لمثل هذه الآليات التي تساعد على التخفيف من انعكاساتها السلبية على الناس، إلى درجة أن الدور المحوري للمجتمع المدني جعلت مايكل إدواردز يصفه بـ "الفكرة العظيمة".¹⁵ وإذا كانت أوروبا لم تعرف في الفترات التاريخية السابقة وجود آليات للوساطة بين الدولة والمجتمع فيما يتعلق بالجانب التضامني، فإن المغرب كان دائما يتوفر على هذه الآليات، وعلى رأسها مؤسسة الزوايا باعتبارها مؤسسات غير رسمية، لكنها كانت تضطلع بشكل مستمر بمهام أساسية داخل النسق التضامني، سواء عبر إيواء عابري السبيل وتزويدهم بالمؤونة، أو توزيع الإعانات خلال أوقات الأزمات كالمجمعات والأوبئة وغيرها.¹⁶ إذ أن الزوايا كانت تتوفر بحكم مكانتها في المجتمع، على رصيد مهم من الأراضي الفلاحية ومخازن الأقوات وغير ذلك، مما كان يتيح لها أدوارا مهما في النسق التضامني، كما أن استفادات بشكل كبير عبر رمزيتهما في المجتمع، من آليات تفويت الأملاك بصيغة الوقف من طرف الأشخاص الذين كانوا يرون في هذه العملية زيادة في الثواب الدنيوي والأخروي، وهو ما جعلها تتوفر على الإمكانيات اللازمة للقيام بدورها

¹⁴ - حول تطور مفهوم المجتمع المدني، انظر: محمد يحيى حسني، مفهوم المجتمع المدني لدى أنطونيو جرامشي من خلال كراسات السجن من التثوير إلى الحيادة، الطبعة الأولى، منشورات المركز الديمقراطي العربي، برلين، ألمانيا، 2017، ص 04

¹⁵ - مايكل إدواردز، المجتمع المدني: النظرية والممارسة، ترجمة: عبد القادر شاهين، الطبعة الأولى، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2015، ص 11

¹⁶ - محمد جادور، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء، 2011، ص 266

السلوك التضامني خلال أزمة كورونا التاريخ مدخلا للفهم والتفسير



التضامني خلال الأزمات.¹⁷

ورغم أن الزوايا هي مؤسسات دينية إسلامية المرجعية، وتختلف عن بعضها على المستوى الطقوسي، إلا أن ذلك لم يمنعها من تبني سلوك تضامني لا يميز بين المنتمين إليها والمنتمين إلى زوايا أخرى أو بين المسلم وغير المسلم، بدليل استفادة اليهود المغاربة على سبيل المثال مما كانت تتيحه الزوايا من مساعدات خلال أوقات الأزمات التي عرفها المغرب.¹⁸

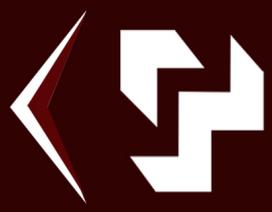
إن الآليات الثلاث المذكورة التي تشكل أسس النسق التضامني الذي ظهر خلال أزمة كورونا الحالية بالمغرب، ساهمت بشكل كبير في التخفيف من انعكاساتها على شرائح واسعة في المجتمع، والتحليل السليم لهذه الآليات ينبغي أن يتم عبر وضعها في سياقها التاريخي لإبراز انتمائها لبنية قائمة ممتدة في الزمن، حافظت على جوهرها رغم التغيرات الشكلية الكبيرة التي أصبحت تعرفها الآليات التضامنية، ورغم مأسسة أشكال التضامن الرسمي على طول السنة (مؤسسة محمد الخامس للتضامن مثلا)، إلا أن السلوك التضامني يبقى في جميع الأحوال جزءا من بنية المجتمع المغربي، والذي يظهر بشكل أكثر نشاطا خلال الأزمات.

ظاهريا، قد يبدو بأن المؤرخ بعيد عن تحليل الحدث الآني وتفاعلاته، وأن ذلك القلق المنهجي المتمثل في ضرورة أخذ المسافة الزمنية الكافية مع الحدث، قد يضعه في موقع الانتظار والترقب لما ستؤول إليه الأحداث وما سيظهر من معطيات تساعد على تكوين صورة واضحة يبني عليها تحليلاته وتفسيراته، وإذا كان التقيد بالمنهج والاحتكام إليه هو ما يميز وجهة النظر الأكاديمية للمؤرخ عن غيرها. فإن هذا الموقع الذي يضع فيه المؤرخ نفسه، في الوقت الذي يتفاعل فيه متخصصون في مجالات أخرى مع التطورات الآنية للحدث ويقومون بتفسيرها والتعليق عليها، قد يقوض أحد أدواره الأساسية المتمثلة في تفسير الحاضر بالماضي. خصوصا وأن مسألة ثبات البنيات واستمرارها في الزمن، محدد أساسي لرصد مدى تطور المجتمعات، ومن شأن الحديث مثلا عن السلوك

¹⁷ - نفس المرجع، ص 270

¹⁸ - محمد الأمين البزاز، الأوبئة والمجاعات، مرجع سابق، ص 356

السلوك التضامني خلال أزمة كورونا التاريخ مدخلا للفهم والتفسير



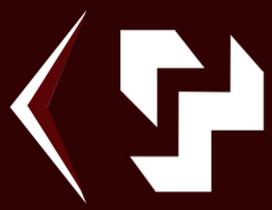
التضامني خلال الأزمة الحالية دون ربطه ببنية سائدة، أن ينزع عن المجتمع أحد أهم خصوصياته التي ارتبطت به وتشكل جزءا من ثقافته، ويحولها إلى ردود فعل مستحدثة مع أزمة عالمية جديدة، في الوقت الذي يمكن للمؤرخ - بشكل حصري - أن يثبت بأن السلوك التضامني في المغرب، يدخل في حكم ثبات الخاصية في البنية مع تجدد آليات تفعلها في الزمن، وهو ما يجعل رؤية المؤرخ مكلمة لرؤى باقي المتخصصين في المجالات الأخرى، فيما وصفه لوسيان فيفر بـ "كسر عقلية الاختصاص وإطلاق مبدأ تعددية الأنظمة المعرفية (Pluridisciplinarité) والدعوة إلى اتحاد العلوم الإنسانية والاجتماعية".¹⁹

كما أن التعليق على الحدث الآني يبرز الزوايا التي يمكن للمؤرخ أن يتفاعل انطلاقا منها مع الحدث، ويساهم في فهم بعض تطوراتها بناء على التجارب السابقة التي عرفها التاريخ، فهو الأقدر على ضبط السياقات التاريخية أكثر من غيره. وهذا ما لا يمنع من جعل خلاصاته الآنية مفتوحة على ما يلحق بالحدث من تطورات لاحقا، وإذا كان المتخصصون في بعض الحقول المعرفية الأخرى، قادرون على صياغة خلاصاتهم النهائية في مرحلة التفاعل الآني، فالمؤرخ ربما من بين الفاعلين القلائل الذين لا يستطيعون الوصول إلى خلاصات نهائية سواء خلال الحدث أو بعده، طالما أن حقل التاريخ هو حقل المفاجآت بامتياز، وطالما أن نقيشة صغيرة في سفح جبل قد تغير قناعة ظلت ثابتة لدى المؤرخين لمئات السنين.

تأسيسا على ما سبق، فإن فهم السلوك التضامني الذي برز خلال أزمة كورونا الحالية بمستوياته الثلاث المتمثلة في الدولة، الأفراد والمؤسسات الوسيطة، قد يجعل المؤرخ متصدرا لقائمة المتدخلين الذين يجب عليهم تقديم التفسير التاريخي لسيرورة نسق تضامني تجذر في المجتمع لقرون طويلة، إلى درجة لم تفلح معها كل التطورات التي عرفتها الأنماط الاستهلاكية والنظم الاقتصادية المتطورة والتحولت المجتمعية الأخرى، في نزع خصوصياته المحلية المستمدة من الدين والروابط الاجتماعية والخوف على قوة ومركزية الدولة خلال الأزمات.

¹⁹ - وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ، اتجاهات، مدارس، مناهج، الطبعة الثالثة، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2015، ص 208

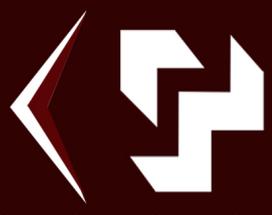
السلوك التضامني خلال أزمة كورونا التاريخ مدخلا للفهم والتفسير



بيبليوغرافيا:

- الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك الإنسان في المغرب والأندلس (ق 6 - 8 هـ / ق 12 - 14 م)، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2008.
- زكرياء الإبراهيمي، إميل دوركايم والتأسيس السوسيولوجي للحدثة، موقع مؤمنون بلا حدود، 29 شتنبر 2016.
- حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود، تاريخ، ثقافة، دين. ترجمة أحمد شحلان، الطبعة الأولى، طبع المترجم، الدار البيضاء، 1987.
- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الطبعة الأولى، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1992.
- أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن 19 (إينولتان 1850 - 1912)، الطبعة الأولى، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 63، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2011.
- المريني العياشي، النضال الجبلي، الأنظمة الاجتماعية الجبلية والنظام الاقتصادي، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، مؤسسة التغليف والطباعة والنشر والتوزيع الشمال، طنجة، 1988.
- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء التاسع، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1997.
- فرناند بروديل، ديناميكية الرأسمالية، ترجمة: شفيق محسن، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي، ليبيا، 2008.
- محمد يحيى حسني، مفهوم المجتمع المدني لدى أنطونيو جرامشي من خلال كراسات السجن من التثوير إلى

السلوك التضامني خلال أزمة كورونا التاريخ مدخلا للفهم والتفسير



الحياد، الطبعة الأولى، منشورات المركز الديمقراطي العربي، برلين، ألمانيا، 2017.

- مايكل إدواردز، المجتمع المدني: النظرية والممارسة، ترجمة: عبد القادر شاهين، الطبعة الأولى، منشورات المركز

العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2015.

- محمد جادور، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار

البيضاء، 2011.

- وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ، اتجاهات، مدارس، مناهج، الطبعة الثالثة، منشورات المركز العربي للأبحاث

ودراسة السياسات، الدوحة، 2015، ص 208

- Bernard ROSENBERGER et Hamid TRIKI. - Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe

siècles, Hespéris-Tamuda, Vol. XV. Fasc. Unique, 1974.